المحاضرة السابعة
موضوع المحاضرة : العصر الحجري الحديث

حضارات العصر الحجري الحديث في شمال إفريقيا

تعريف النيوليتي :

سمي النيوليتي بالثورة الإنتاجية الأولى لأن الإنسان أصبح لأول مرة منتجا للطعام بعد أن كان مجرد مستهلك له، وهذه الخطوة الهامة من تاريخ البشرية نقلت الإنسان من حياة الانتقال والسعي وراء حيوانات الصيد أو بحثا عن الثمار يلتقطها، إلى حياة تتسم بالاستقرار والتجمع في قرى والارتباط بالأرض و الزراعة والري، والتعاون من أجل البقاء أو نقلته إلى حياة بدوية منظمة يرعى فيها حيوانا معينا اختاره .

الوضع العام :

ولم يقتصر التطور الذي حدث في النيوليتي على التحول من حياة الارتحال والتنقل إلى الاستقرار فحسب، بل شمل أيضا تغيرا جذريا في الأدوات والأشياء التي ظهرت أو تطورت في هذا العصر لتلاءم طبيعة المجتمع الجديد المرتبطة بزراعة الأرض وحصد الزرع، وشق الترع وبناء الجسور و الاستقرار ويعني بناء المساكن والقرى، وقد حقق الإنسان في هذا العصر مكاسب هامة انتفعت بها البشرية جمعاء، منها مكسب تقني تمثل في السيطرة المثلى على مادة الصوان وصناعة أدق الأدوات الحجرية وأكثرها تنوعا وفعالية، من رؤوس السهام البالغة الدقة والجمال، إلى المخارز الصغيرة جدا والدقيقة، وكأنها أدوات جراحة وتشريح طبي، وهو ما عُرف بالصناعة القزمية إضافة إلى تطويع الصناعة الحجرية والسيطرة على تقنياتها.

تجدر الإشارة إلى أن هذه التطورات الهامة لم تحدث لدى جميع البشر المنتشرين في شتى أصقاع العالم في آن واحد، فقد بينت المكتشفات الأثرية أن ذلك التقدم قد حدث بشكل متفاوت زمنيا بين منطقة وأخرى، وقد كانت بلاد المشرق أبكر المناطق التي شهدت ميلاد ثورة النيوليتي، حيث عُثر هناك على شواهد الأدوات المستعملة في النشاط الز ا رعي، كالمناجل التي تعود إلى الألف الثامنة ق.م ، كما عُثر على بقايا حبوب زراعية (أنواع من القمح)باكرة جدا و مزامنة لأدوات الزراعة المكتشفة هناك، وكذا آثار القرى الزراعية الباكرة في المناطق التي شهدت ميلاد الزراعة.

وقد رصد علماء ما قبل التاريخ عملية انتشار التأثيرات النيوليتية في حوض البحر المتوسط، فوجدوا أنها انطلقت من الشرق عبر طريقين :أحدهما بلاد الأناضول ثم شرق أوربا فغربها عبر ضفاف الأنهار مثل الدانوب، والآخر عبر مصر و الصحراء و بلاد السودان، ومنه إلى شمال إفريقيا، لكن الطريق الأخير كان أكثر تسارعا لانتقال التأثيرات النيوليتية، حيث وصل إلى جنوب الجزائر خلال الألف الثامنة قبل الميلاد، بينما لم يصل التيار النيوليتي الأول إلى جنوب فرنسا سوى في الألف الرابعة ق .م .ويُعتقد أن جنوبي ايطاليا واسبانيا تبادلتا التأثير النيوليتي مع شمال إفريقيا عبر طرفيها (اقليما تونس و طنجة)

نيوليتي شمال افريقيا :

ظهرت في الجزائر الشمالية والجنوبية خلال أزمنة مختلفة حضارة جديدة، هي حضارة النيولتي التي أحدثت تغيرا واضحا في أساليب معيشة السكان، كما تعد ابتكا ا رتها في المجال التقني وفي أساليب استحصال الغذاء ثورات حقيقية وضعت قواعد للمجتمعات الريفية المغربية، دامت عصورا عديدة .إن هذه المرحلة الطويلة التي بدأت في الصحراء في فجر الألف السابع قبل الميلاد وامتدت حتى الألف الثانية قبل الميلاد، قد شهدت تبدلات مناخية كبيرة المدى وقعت في أصقاع الصحراء الواسعة .ورغم أن عوامل هذه التبدلات غير معروفة إلا أنه من الواضح أن النيوليتي قد عاصر في الصحراء مرحلة رطبة أخيرة قبل أن يعم الجفاف شبه الكامل البلاد الواقعة جنوبي الأطلس، ويجب إذن أن نأخذ بعين الاعتبار هذا التبدل المناخي فيما إذا أردنا فهم الازدهار الحضاري الذي تم في مجالات جغرافية تخلو اليوم من البشر.

دلائل بداية الزراعة في شمال إفريقيا:

تشير الأبحاث الأثرية شمال إفريقيا قد عرفت الزراعة قبل أوربا، أي منذ حوالي 9 آلاف سنة ق.م، وهناك أدلة أثرية ونباتية على صعيد الزراعة وتربية الماشية وممارستهم لها، منها المكتشفات الخاصة بالعديد من أدوات الحرث والحصاد التي خلفها إنسان الحضارة الابيرومغربية و القفصية منذ أكثر من 11 ألف سنة ق.م .ومن المؤشرات الأثرية على معرفة إنسان الشمال الإفريقي بالزراعة العثور على الكرات المثقوبة (les boules de pierres) ، المكتشفة في عديد المواقع القفصية و النيوليتية مثل مواقع :الرديف وكاف لعقاب بتونس، وكذا كهف الأروية ، وكهف بوزباوين، كهف واد الكرمة ، حاسي الحميدة(الصحراء)هذه الكريات الحجرية عموما ناد ا ر ما تكون كمثرية الشكل، يمكن أن تستعمل في وظائف مختلفة، خفيفة جدا ومن أحجار جيرية لا يمكن استعمالها في أشغال الطرْق، وتُتخذ للتعليق .كما وُجدت من بين الأدوات تدل على ممارسة باكرة للزراعة عصيّ حفْر تسمى " Digging-Stick " نهايتها العليا مزودة بكويرة حجرية، بحيث تسمح بالتركيز عند غرزها في التربة .

أدوات النيوليتي بشمال افريقيا :

أولا : الأدوات

سجلت تقنيات صناعة الأدوات الحجرية خلال النيوليتي تطو ا ر في مجال الصقل، حقيقة أن صنّاع ما قبل التاريخ قد صقلوا العظم وربما الحجارة أيضا قبل النيوليتي، لكن تقنية الصقل لم تحظ لديهم بالأهمية التي ستكون لها في النيوليتي .لقد برزت هذه التقنية الجديدة في صناعة أدوات تسمى بالفؤوس و البليطات التي كان الصقل يتناول جميع جوانبها أو بعضا منها، وهي أدوات تنتهي بحد قاطع، غير أننا لا ندري فيما إذا كانت وظيفة تلك الأدوات تماثل وظيفة القطاعات و البليطات الحالية.

وقد تتضح معالم النيوليتي في شمال إفريقيا أكثر منذ نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، ومن جهة أخرى توجد تأثيرات العصر الحجري ممتزجة بالحضارة القفصية المتطورة في مناطقها الأصلية، حيث يظهر ذلك في ملاجئ السكن، لا سيما في موقع الداموس الأحمر بالقرب من تبسة .ولم تستعمل المطاحن و المهاريس فقط لطحن الألوان المستعملة بدون شك في طلاء الأجسام البشرية، بل أيضا اُستعملت في سحق الحبوب البرية .أما بيض النعام الذي زيّن في بعض الأحيان بش ا رئط هلالية أو بحزوز فقد واجه خلال النيوليتي منافسا له في الوظيفة يتمثل في الفخار الخشن .كما تطورت في تلك الفترة الصناعة العظمية بحيث شملت رؤوس السهام ذات الثقب إلى جانب الأدوات المثقوبة الأخرى التي وُجدت لها أمثلة في مغارة بوزباوين بالقرب من عين مليلة، وهي محفوظة في متحف قسنطينة.

ثانيا صناعة الفخار- :

إن من الدلائل الأثرية على الاستقرار وممارسة الزراعة بالشمال الإفريقي، وجود الفخار في عدة مواقع من هذه المنطقة، حيث نجده منتش ا ر في المغرب قرب الرباط، ومغارة العالية قرب طنجة، وهذا دليل على استعماله في خزن المواد الغائية، فالمعروف لدى المختصين أن الزراعة والفخار متلازمان ومرتبطان بينهما، ذلك أن إنتاج الفخار .

و إذا ألقينا نظرة عن بداية صناعة الفخار، نجد بأن البشر قد توصلوا لأول مرة خلال العصر الحجري الحديث إلى صنع أواني توضع على النار دون أن تتحطم واستخدموا لهذا الغرض الطين، وهو مادة تتصف بالليونة والمقاومة .وهناك ثلاث طرق شاعت في صناعة الأواني الفخارية أثناء النيوليتي هي:

- صُنعت بعض الأواني اعتمادا على تقنية الحماميات، حيث كان الصانع يشكل أسطوانة رقيقة من الطين، ثم يمطلها ويعطي لها شكلا حلزونيا كي تكون جسم إناء.
- القولبة، وتتمثل في تغطية القالب(حبة قرع، بيضة نعام)بالطين، فيعطي القالب شكله للإناء .
- طريقة الطرق، وتتطلب استعمال حصاة كمطرقة تُطرق بها كرة الطين حتى تعطي الشكل المرغوب، ومفهوم أن داخل الإناء هو الذي يُطرق بهذه الكيفية.

تقسيمات النيوليتي بشمال إفريقيا :

يظهر النيوليتي في الشمال الإفريقي في شكل ثلاث نماذج متمايزة فيما بينها على أساس المنطقة الجغرافية التي يقوم فيها، ففي الساحل المتوسطي نشأ نيوليتي متأثرا بالنيوليتي في أوربا، وفي المناطق الداخلية انتشر نيوليتي قائم على عناصر الحضارة القفصية، وفي الصحراء نشأ النيوليتي الصحراوي السوداني.

أ- النيوليتي الساحلي(المتوسطي)

سجلت عدة تأثيرات نيوليتية على الساحل المغاربي تظهر آثارها خاصة في الجهة الغربية بشواطئ المغرب الأقصى القريبة من اسبانيا، وفي الجهة الشرقية بالشواطئ التونسية المقابلة للجزر الايطالية.

بالنسبة للتأثيرات الغربية، نجد آثارها تكمن في العثور على بقايا فخارية التي تميز حضارة الكارديال المنتشرة في جنوب أوربا في موقعين للنيوليتي بالمغرب الأقصى، الموقع الأول أشاقار قرب طنجة، والثاني موقع غار كحال قرب سبتة .

تتميز الأواني الفخارية في هذا الاقليم بالشكل الشبه الدائري ذو فتحة كبيرة مع اختناق، وشكل آخر قاعدته مخروطية، أما الزخارف فنجدها في ثلاث أنواع :

- النوع الأول زخارفه تغطي أكبر مساحة ممكنة للآنية برسومات ح ا زمية.
- النوع الثاني يتميز بزخارف متناوبة.
- النوع الثالث فيتميز بزخارف متنوعة بإضافة أحزمة وحبات من الصلصال.

وعلى العموم فإن المحتوى المادي للنيوليتي الساحلي يتركب من العناصر التالية:

- قلة الأدوات الحجرية التي تتميز بكثرة الحزات والمسننات.
- نسبة متوسطة من المحكات و النصيلات ذات الظهر.
- ندرة الحجر قزميات الهندسية.
- قلة الفؤوس المصقولة ورؤوس السهام.

ب النيوليتي ذو التأثير القفصي- :

عرف الأستاذ فوفري النيوليتي ذو التأثير القفصي سنة 1933 م بأنه ينتشر في المناطق الداخلية ويتميز باحتوائه على صناعة حجرية تتصف بالاختفاء الكلي لما يشبه الصناعة القفصية النموذجية خاصة منها الرؤوس ذات الظهر و المحتات .ويوجد بعض الحجر قزميات الهندسية وظهور رؤوس السهام خاصة منها رأس ذو الوجهين .ولم يعثر الباحث على أدوات مصقولة او بقايا فخارية.

ينتشر النيوليتي ذو التأثير القفصي في عدة مناطق من الصحراء (الصحراء الشرقية والشمالية والغربية)، ففي الصحراء الشرقية يطلق على هذا النيوليتي ذو الوجه الصحراوي الشرقي، ويضم المواقع النيوليتية الواقعة جنوب المنطقة القفصية أهمها :عين قطارة، حاسي مويلح ومواقع منطقة ورقلة.

ج النيوليتي الصحراوي السوداني- :

يتمركز النيوليتي الصحراوي السوداني في أعماق الصحراء، وكان يسمى بالنيوليتي ذو التأثير السوداني لأنه كان يعتقد أن أصله سوداني بنواحي الخرطوم، لكن اقترح كامبس تغيير التسمية على اثر دراسته لبعض المواقع التابعة لهذا النيوليتي وخاصة منها موقع أميكني بالهقار، وقد بينت أبحاثه التشابه الموجود بين النيوليتي في الصحراء وفي السودان وت ا زمنهما ومنه استحالة تأثر النيوليتي الصحراوي السوداني .والجدير بالذكر أن بيئة الصحراء تختلف اليوم عما كانت عليه خلال فترات العصر الحجري الحديث، إذ كانت فيها شبكة من المياه المنظمة بواسطة جريان الأودية العديدة، مثل واد تفاساست الذي كان يجري حتى منطقة التشاد.

النيوليتي الصحراوي السوداني للهقار- :

من أهم المواقع التي تنتمي اليه موقع أميكني، منيت ثم أد ا رر تيووين، ومواقع أخرى قرب تمنراست .من أهم خصائص الصناعة الحجرية لهذا النيوليتي هو قلتها ورداءتها، بسبب رداءة المادة الأولية المتوفرة في هذا المحيط كونها تنتمي إلى الصخور البركانية مثل البازلت والريوليت والكوارتز.

أما أدواتها فتتمثل في:

- تمثل الأدوات ذات الظهر ¼ صناعة هذا النيوليتي.
- احتوائه على رؤوس سهام وصناعة حصوية وافتقارها للمحكات والحجر قزميات الهندسية–
- احتوائه على أدوات طحن ومدقات وأداة كروية و المصاقل- .

أما بالنسبة للصناعة العظمية والحلي، فهذا النيوليتي غني بها، مثل الخناجر والمخارز و المصاقل والمقطع، ويحتوي حليه على بعض حبات العقيق .وهناك صناعة مهمة لهذا النيوليتي وهي صناعة الفخار، فالفخار مشكل بعجينة صلبة ويحتوي مثبت الكوارتز.

مطحنة من العصر النيوليتي